مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2572-0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 05 العدد:02- جوان 2021 ص250/273

فلسفةُ المكانِ في شِعرِ عثمان لوصيف

the philosophy of place in the poetry of Othman Lusif

د، علاوة كـــوسة *
المركز الجامعي بريكة – الجزائر
koussaallaoua@yahoo.fr

معلومات المقال	الملخص:
تاريخ الارسال: 2021/04./27 تاريخ القبول: 2021/05/19	يقارب الباحثُ في هذه المداخلة فلسفةَ المكان في شعر عثمان لوصيف ؛ويهدف إلى اتخاذ نماذجه الشعرية عيناتٍ لاستقصاء الأبعاد المكانية بمختلف تجلياتها ، وأقسامها فمقولاتها، وعلاقاتها بالآخر ، من حيث مقولاتها الظاهرة وأنساقها المضمرة، لأن المتمعّن في المتن الشعري عند عثمان لوصيف يستشعر سلطة المكان القصوى في تشكيل النص الشعري، متضمنا جمالياتِ المكان ومقولاته ، كما خلصنا إليه في نتائج البحث، وهو ما يجعل للمكان في شعره فلسفته المتفردة في المشهد الشعري الجزائري والعربي، وأهميته في تشكيل النص الشعري المعاصر، وكانت هناك علاقة للمكان بالآخر في شعره، كعلاقة المكان بالزمن والأنساق المضمرة ، والذوات ، واللغة .
الكلمات المفتاحية: ✓ المكان. ✓ الشعر. ✓ عثمان لوصيف	
Article info	Abstract :

In this intervention, the researcher approaches the philosophy of place in the poetry of . Taking samples from his poetic models as samples to investigate the spatial dimensions in their various manifestations and divisions sections of their sayings and their relations with the other, So for its stages from other literary texts where the place is the main pillar in the body of the poem, and we talk in this country about the relationship of place - excellent in poetry - With other poetic elements; Such as the relation of place to time and the implicit systems, subjects, and languag

Received *27/04/2021*
Accepted *19/05/2021*

Keywords:
- ✓ *the place*
- ✓ *the poetry*
- ✓ *Othman Lusif*

. مقدمة:

إنّ للمكان فلسفتَه في الرؤى الشعرية المعاصرة ، وإنّ له قيمتَه في فضاءات الكتابة الشعرية القديمة والحديثة ، ويعدُّ المكانُ مُدخلا نقديا للقراء والنقاد على شغفٍ سواء؛ من أجل تحسّس آلياتِ الكتابة الشعرية وفنياتِها ومقولاتِها، لذلك سنتوقف عند موضوعٍ بالغ الأهمية، وهو فلسفةُ المكان في الشعر العربي المعاصر ،من خلال مدوّنة شعرية مائزة لأحد أهم الشعراء العرب المعاصرين، ونقصد به الشاعر" عثمان لوصيف"، ببحثنا الموسوم:" فلسفة المكان في شعر عثمان لوصيف"، منطلقين من سؤال إشكالي: ما فلسفةُ تشكيل المكان في النص الشعري لدى عثمان لوصيف؟ وماعلاقة المكان الشعري ببقية البنيات والمكونات الشعرية الأخرى؟ ونهدف من خلال بحثنا هذا إلى إبراز القيمة الفنية والدلالية للمكان في المدونة الشعرية المعاصرة، وإلى تحسّس العلائق المختلفة للفضاء المكاني بالفضاءات التشكيلية الأخرى للقصيدة المعاصرة، ومن مبررات إنجاز هذا البحث، أنّ المدونة الشعريةَ للشاعر المستهدف بالدراسة(عثمان لوصيف) تشتغل على قراءة المكان وصياغتِه وتوظيفِه بشكل يبعث على القلق النقدي المنتجِ لتساؤلات ورؤى نقدية جادة ، كما أن التنوع المكانيّ في المدونة المستهدفة يبعث على تفقّد فلسفةِ الشاعر في معايشة الحالة المكانية وصياغتِها وفْق رؤية شعرية خاصة، ومحاولةً منا للإحاطة النقدية الواعية المنتِجة بجوانب البحث ، فقد اتخذنا المقاربة التحليليةَ التأويليةَ سبيلا نقديا، مفتتحين البحثَ بمهاد نظري ينشد التميزَ بين مصطلحَي (المكان)

و(الفضاء)، لننتقل إلى الحديث عن أقسام المكان وفلسفةِ تشكيله شعريا، وعن علاقات المكان بالآخر الشعري، بكل مكوناته الفنيةِ والدلالية، كالزمن والأهواء والأنساق واللغة، واعتمدنا في بحثنا هذا على المدونة الشعرية الكاملة لعثمان لوصيف ، والتي قوامُها إحدى عشرة مجموعة شعرية، وعلى مراجعَ متخصصةٍ في الموضوع الرئيس لبحثنا ومنها:(باشلار ، غاستون: جماليات المكان)و(كحلوش ، فتيحة: بلاغة المكان) و (مونسي، حبيب: فلسفة المكان في الشعر العربي، قراءة موضوعاتية جمالية) و(نجمي ، حسن: شعرية الفضاء) و (يوري، لوتمان : مشكلة المكان الفني)، ومن أهم النتائج المتوصل إليها في بحثنا هذا: إنّ المتتبع للظاهرة الشعرية عند عثمان لوصيف سيتحسّس الحضورَ المكانيَّ اللافت والمتميز ؛ ويمكن عدّه شعرا مكانيا بامتياز ، كما أن الأهم من استحضار المكان شعريا هو الوعيُ به واستنطاقُ مقولاته وتحسّسُ جمالياته واكتساحُ مستوياته شعريا ، ومخاطبةُ أنساقه الظاهرة منها والباطنة المضمرة، وهو ما لمسناه في النصوص المستهدفة ، إذْ لم يكتفِ الشاعرُ باستحضار الأمكنة الواقعية الأليفة منها والمعادية الموحشة ، إنما عمد إلى خلق أماكن وعوالم جديدة عجائبية أسطورية تخييلية علّها تسع رؤاه حين ضاق به المكان الحقيقي الممكن الواقعي، وقد بدا الشاعرُ مدّاحا للمدن مؤرخا لها باثا إياها حنينَه وتعبَ أسفاره السندبادية الشاقة ن كما كانت المدينةُ معادلا موضوعيا للمرأة الحبيبة العشيقة والحب والحياة المنشودة ن واستحضر الشاعرُ المدنَ بأنساقها الظاهرة والمضمرة تاريخا وفكرا وحضارة وأهواء، عاكسا بذلك قراءاته العميقة للمدينة، حيث قارب الشاعرُ المكانَ بحسّ إنساني كبير ، وأقام علاقاته الفنية مع كل عناصر المكان، واستدعى لذلك الحواس جميعا فتداعت ، فاستشعرنا حوار الألوان والأصوات والصور جليا في النصوص الشعرية.

أولا : في المهاد النظري.

1- إشكالية المصطلح: الفضاء/المكان. قبل الخوض في فلسفة المكان في المتن الشعري الجزائري، (وفي تجربة الشاعر عثمان لوصيف تحديدا) آثرنا أن نقف عند حدود مصطلح الفضاء/المكان، وذلك لما تلبسهما من غموض وتداخل، واستعمال بنفس المفهوم، فمن الدارسين من يوردهما بمفهوم واحد ومنهم من يفرق بين المفهومين: الفضاء، المكان، ويعود هذا الالتباس إلى أن "الأبحاث المتعلقة بدراسة الفضاء تعتبر حديثة العهد، ومن الجدير بالذكر أنها لم تتطور بعد لتؤلف نظرية متكاملة عن الفضاء الحكائي، مما يؤكد أنها أبحاث لا تزال فعلا في

بداية الطريق"[1]، إذ لا نكاد نعثر على دراسات كثيرة متخصصة في هذا المجال إلا بعض الجهود المتفرقة هنا وهناك.

جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة "فضا" قوله: "فضا: الفضاء/ المكان الواسع من الأرض، والفعل فضا يفضو فضوا فهو فاضٍ... وقد فضى المكان وأفضى إذا اتسع، وأفضى فلان إلى فلان، إذا وصل إليه، وأصله أنه صار في فرجته وفضائه وحيزه"[2]، وهنا يتخذ الفضاء – حسب ابن منظور – معنى الاتساع، وتصير له تسميات كالفرجة، الحيز، وقد فضل عبد الملك مرتاض المصطلح المنظوري "الحيز" في جل أعماله النقدية للدلالة على الفضاء/المكان، ويعرفه في كتابه "القصة الجزائرية المعاصرة": "الحيز، لدينا، ليس هو فقط الفراغ ولكنه يشمل الامتدادات والخطوط والأحجام والأوزان والظلال والاتجاهات التي تقع في حركة الأسفار حتى لو كان السفر أسطوريا"[3] وبذلك يكون للفضاء ملمحٌ شمولي لكل الموجودات من حيث إن الفضاء يحتوي كل كائن بحركته وسكون وأفعاله لأنه "يحمل مع جميع الدلالات الملازمة له، والتي تكون عادة مرتبطة بعصر من العصور حيث تسود ثقافة معينة أو رؤية خاصة للعالم"[4] ؛ فيصبح الفضاء انطلاقا من رؤية حميد لحميداني، الإطار الذي تتشكل داخله الموجودات جميعها، والأفكار والرؤى والثقافات، وتنطبع فيه بطابعه، من منطلق أن للفضاء سلطته على تشكيلاته وجزئياته، ومكوناته، وأن له تأثيراته عليها. لذلك تختلف هذه الرؤى والثقافات باختلاف الفضاءات التي تحتويها وتشملها وتشكل إطارها وحيزها الذي تدور وتتحرك، و"تنتظم فيه الكائنات والأشياء والأفعال»[5] أما عند "غاستون باشلار" فقد اقترن الفضاء بالبيت حيث إن "كل الأمكنة المأهولة حقا، تحمل جوهر فكرة البيت (...) وأن الخيال يعمل في هذا الاتجاه أينما لقي الإنسان مكانا يحمل أقل صفات المأوى"[6]، على الرغم من أن "الدراسات الموجودة حول هذا الموضوع لا تقدم مفهوما واحدا للفضاء"[7]

2- أهمية المكان في النّص الشعري: للمكان أهمية بالغة في النص الشعري، كغيره من النصوص الأدبية الأخرى حيث "يقوم المكان في النص بوظيفة العمود الفقري"[8] في جسد النص ؛ بل يمكن عدّ "المكان هوية العمل الأدبي"[9] كله، وإنّ للمكان مدلولاته الفكرية والنفسية والاجتماعية أيضا، "ويعني المكان بالنسبة للإنسان أشياء متعددة، فهو المأوى والانتماء ومسرح الأحداث"[10] ، وكل ما يمكن أن يختزن جزءًا هاما من ذاكرة الإنسان وتجاربه، وذلك على يقين من أن "المكان الحيز لا يمكن أن يعني شيئا كبيرا، وغنما المكان الذي يعني هو المكان التجربة"[11]،

المكان الحدث، المكان الوقائع، المكان الذي يختزل فترات من عمر، ومراحل من حياة، لذلك عكف الكتاب والمبدعون على الاشتغال عليه وتأثيثه في أعمالهم الأدبية بكل مكوناته التي تجعل منه مسرحا هادفا دالا، يؤدي وظيفته الأدبية كما تؤديها عناصر العمل الأخرى، "ويمكن القول إن المكان ليس مجرد وعاء خارجي أو شيء ثانوي، بل هو الوعاء الذي تزداد قيمته كلما كان متداخلا بالعمل الفني"[12]، بل ويتجاوز كونه وعاء إذا كان الناص واعيا بسلطة المكان وأدائه القوي داخل النص، وبمقدرته على صدارة العناصر الأدبية دلالة وتشكيلا، كما أن العلاقة بين الناص/الكاتب والمكان كمكون رئيس دال، من شأنها أن تنعكس على عناصر العمل الأدبي الأخرى فتتضافر معها لتشكل قوة/سلطة النص الكلية. "وفي ثنايا ذلك الحديث بين الذات المبدعة والمكان الخارجي تنمو لغة أخرى، وهذه اللغة تختزل ملامح شعرية المكان، حيث تهرب الأمكنة من حقيقته، ليبني الخيال المكان الآخر، المكان اللغوي"[13]، وبذلك تحدد قيمة التعامل مع المكان، بوعي وعمق عوالم لغوية جديدة تعطي للمكان مفهوما جديدا مغايرا خاصا بكل مبدع/ناص، "لأن المكان يبقى مفهوما ضروريا، فلا وجود ولا زمن ولا حركة ولا لون ولا ظل ولا أشياء إلا به"[14]

إن الحديث عن المكان في أي عمل أدبي هو حديث عن العمق والدقة بعيدا عن المعنى السطحي، فلم يعد المكان "الأرضية التي تتوزع على خارطتها الأحداث ولا هو الشكل البلاستيكي المبني من الطوب والحجر والقصب (...) كما أنه ليس متكأ للفن الرديء الذي يجد في أجزائه مادة للوصف المركب وإنما هو ذلك الشيء الذي يستحيل الفن بدونه أن يسمى فنا"[15]، ومن ثمّ فإن حسن التعامل مع "المكان" من حسن الوعي بأهميته ودوره في العمل الأدبي؛ بعيدا عن استغلاله كتوشية وزخرفة لابد منها في النص الأدبي،" وتتكشف معضلة المكان في شكلها المعقد، حينما يلامس التفسير والتأويل تخوما، يكون فيها المعنى أكثر ارتباطا بالمكان وإيحاءاته. وكأن المعنى لا يكتسب أبعاده القصوى إلاّ إذا استرفد المكان، واستخلص منه محمولاته الدلالية. فإذا اقتصر التأويل على المعطيات الفكرية، والاجتماعية، والنفسية..مثلا فإن صنيعه ذاك يظل ناقصا، مهما كانت درجة العمق والإجادة في خطابه. بل إننا نزعم الساعة أن التأويل الذي يكتفي بذلك النزر القليل من الفحص، تأويل ناقص. لا يمكن أن يصل إلى عمق النص أبدا، مادامت المعطيات نفسها لا تتأسس قاعدة علمية، إلاّ إذا أخذت حظها من الارتباط التشعّبي الذي يشدها إلى المكان"[16]، و يؤكد حبيب مونسي في معرض بحثه في فلسفة المكان على ضرورة

الالتفات إلى قراءة المكان والاهتمام به، " ولما كان الشعر العربي، شعرا مكانيا في ارتباطه بالبيئة التي أنتجته، والإنسان الذي أبدعه، كان لزاما على الدرس الأدبي أن يلتفت إلى المكان فيه، نظرة لا تحكمها التابعية، فتحصر هم المكان في بعض المظاهر الثانوية، أو تتخطاه لمجرد ذكره بعبارات اهترأت استعمالاتها، و خوت دلالتها، وصدئت جدتها. بل التنقيب في عمق العلاقات التي ينشئها المكان بينه وبين مختلف المعاني، والعادات القولية، والفعلية، والأخلاق، والسلوك. مادامت الغنائية في الشعر العربي إنما تتأسس على اهتمام فردي في المقام الأول، ثم تنفتح لعديد من العلاقات الأخرى."[17] ،كما أنه لايمكننا بأي حال من الأحوال الادعاء بأنه يمكننا ولوج عوالم النص الشعري دون امتلاك أدوات قراءة المكان وتفكيكه واستكناهه ؛ لأن المكان الشعري شريك رسمي في بناء البيت الشعري، وإنّ له حضورا شكليا وضمنيا داخل النص ،لذلك لقي كلَّ هذا الاهتمام في الدرس النقدي المعاصر؛ و " لقد أخذ الحديث عن المكان في الشعر العربي أبعادا مختلفة، بحسب زوايا الرؤية التي عالجته من جهة، وبحسب الفهم الذي أنيط به من جهة ثانية، وبحسب المعارف الرافدة التي تؤثث الدراسة. وكل مقاربة للمكان من هذه المنازع إنما قدمت نتائجها الدقيقة التي أعطت للمكان ثقله الفني في البناء الشعري شكلا ومضمونا، حتى غدت مقولة المكان من الخطورة ما يجعلها موضوعة تتشعب إلى رؤى ذات طبيعة ميتافيزيقية، بعدما كانت تدرك فقط في الحدود الجغرافية والاجتماعية و النفسية. ذلك أن المكان في صلته بالذات المبدعة والمتلقية، يتخذ من الصفات المتشابكة ما يجعله من المقولات الأكثر تعقيدا على مستوى المعنى والمبنى. وأن فك هذه العلاقات يقتضي من الدرس التحليلي أن يسترفد سائر المعارف التي أنتجتها العلوم الإنسانية لفك ألغازه، حتى تفضي إلى الحقيقة التي من أجلها سيق المكان في الشعر موضوعا، أو إشارة، أو رمزا"[18] ، وعليه فمن غير الممكن القول بمقاربة الشعر بعيدا عن فقه أمكنته والرسوخ في تأويلها ،لأن المكان عمود الشعر بلا منازع.

ثانيا : فلسفة المكان في شعر عثمان لوصيف: أحدُ أندر الشعراء الجزائريين والعرب المعاصرين الذين عاشوا التجربة الشعرية قبل أن يكتبوها ، والذين ضاق بهم الكون الفسيح بما رحب، فأعادوا تشكيله شعريا وإنهم فيه لموسعون، أولئك الذين سكنتهم الأمكنة إذ سكنوها ، واتخذوا منها مواقف فنية وتشكيلية في نصوصهم المكانية بفلسفتهم ورؤيتهم الخاصة، التي لا شريك لهم فيها،إنه فقيد الشعرية الجزائرية المعاصرة ، وأحد أعلامها البارزين في تاريخ الشعر الجزائري القديم والحديث، الذي علمنا" الكتابة بالنار" حين لايُصغَى لنا، وحين ينتابنا "شبق

الياسمين" في"أول الجنون" فنكون أهلا ل"براءة" عشق شعري نادر جدا ، فكان عثمان فعلا علامة شعرية جزائرية مسجلة لاتقبل التقليد أبدا، وله في الحراك الشعري المعاصر "أبجديات" لايفقهها إلا الراسخون في الحلم، أولئك الشاهدون على" ما"قالت الوردة" فأقاموا لها"أعراس الملح"لتخلد "اللؤلؤة" الشعرية الجزائرية بين أقرانها العربية شامخة شموخ عثمان لوصيف ؛ الذي عاش شامخا شعريا ومات واقفا في وجه رياح النسيان والتغييب ، فكتب له الخلود؛ وكذلك يمر عظماء التاريخ والحرف شامخين وينصرفون ممتلئين حبا وحياة.تاركا من خلفه أماكن تنضح شعرا وفرحا، ومدنا تتغنى بأشعاره وقد عاش حينا من الشعر والدهر متغنيا بها ،هو مدّاح المدن محييها في زمن رثائها وبكائها في أوطان أخرى.، فأفرد لغرداية القلب والديوان، وهو العابر الشعري المداح لمدائن كثيرة، فمن بسكرة السكّرة إلى سطيف العروس فباتنة الملاذ،إلى وهران الحنون فتيزي وزو التاريخ فورقلة الزهراء والطفلة المدللة ،فمدن أخرى ، يرحل عثمان وتظل مآذنها وآذان أهلها صاغية صاغرة لروائعه الشعرية، هذا هو عثمان قبل دخولنا ممالكه الشعرية الباذخة من أبواب قرائية متفرقة.

1-أوجاعُ البحر والصحراء: تسكن الأمكنةُ الشعراءَ فتعمّر طويلا، ولم يكن المكانُ البتّة إطارا وحيزا يمارس فيه الفردُ تفاصيل الحياة بحياد، بل إن الذات البشرية تعيش ذاك الحيّزَ بكل ماأوتيت من حس وحياة وذاكرة وحلم ، وتقاسمه التفاصيلَ وتُسكنه ذاتها رغبة أو رهبة، فمن غير الممكن الحديث عن فصل بين ذات المكان وذات الإنسان أبدا ، ومثلما يقول الأسلوبيون: إن الأسلوب هو الإنسان، فإننا نجزم بأن المكان هو الإنسان روحا وجسدا، ذاكرة وحلما، حضورا وغيابا ، "والمكان لايتوقف حضوره على المستوى الحسي إنما يتغلغل عميقا في الكائن الإنساني حافرا مسارات وأخاديد غائرة في مستويات الذات المختلفة ليصبح جزءا صميما منها "[19]، وإن آمنّا بموت المؤلف الناعم وبضمورِ السياق لدى مقاربة النص الشعري، فإننا لاننفي أن مقاربة التجربة الشعرية " العثمانية" لايمكنها بأي حال من الأحوال التأويلية أن تتنصل من السياق المكاني، من حيث موطنُ الشاعر ومسقطُ تجاربه الشعرية الأولى(ونقصد الصحراء)، لذلك آثرنا مقاربةَ الفضاء الأكثر حضورا في المدونة الشعرية العثمانية ، وإنْ بتشكيل وصيغ وأبعاد وصفات مختلفة، فلم يكن ذلك الحضورُ الصحراوي عفويا عارضا لدى عثمان لوصيف ، الذي ارتسمت ملامحُه التعالقية الشعرية مع الصحراء واضحةً عميقة أليمة أليفة قاسية، فالصحراءُ "متحفنا التراثي الأدبي حفل منه الشعر الجاهلي بالخصوص بانفتاح كبير وعميق

وواع على أهمية الفضاء في صياغة الوجود المادي والإبداعي، الوعي بالفضاء كمكان أولا، ثم كعلائق وكذاكرة وكحنين"[20] ، ومازال يحفل به المتحف الشعري المعاصر، وعثمان ممن أثثوا هذاالمتحفَ الشعري بنصوص مكانية كثيرة، تأخذ قيمتها الفنية بالتقادم ؛ بوصفها تحفا شعرية تكشف عن حسناتها يوما بعد يوم، وسنفقه الصحراءَ حين نفهم المكان والإنسان والوجود كله من خلال ما امتلأت به الصحراء من فراغ رهيب مؤثث ببواعث للحب والحنين، كالإنسان الذي شغل المكان، والمكان الذي شغل الإنسان أيضا، إذ الأماكن نسكنها وتسكننا، وفيها الحياة كما الموت والاخضرار كما الاصفرار والخصب كما اليباب، و" هل قدر الصحراء أن تكون موطن النبوات والعذابات والتصوف والتجرد والأسرار والنقاء، الشعر والحكي"[21] فقط ، أم إننا لم نُحط بها علما وخبرا وحلما وسرا؟ أم إنها موطن الأحلام والجمال والتلبس بالحياة ، ولقد ارتبطت" الصحراء بالغزو وقطع الطرق فإن رمزيتها ارتبطت بإحاطتها الواسعة بالفرد الذي تستلب حريتَه"[22] ، لذلك ينزع الشعراء إلى التحرر شعريا في كثير من نصوصهم التي تتخذ من الصحراء أفضية ، ومن مكوناتها رموزا وبواعث للخروج عن التقاليد الشكلية والموضوعاتية أحيانا ، ولنا في القصيدة الحرة الجزائرية أمثلة كثيرة ، ومنه فإن الصحراء تعني في ما تعنيه التحررَ والانطلاق والتمرد ، والفقدَ الكثير، وتعني الخصبَ والنماء والملاذ كما صور عثمان لوصيف ذلك، فأحال الفضاءَ الصحراوي المقفر جناتِ شعر تجري من تحتها الأنهار ويحتمي بها الطير والبشر بفائض جمال ومخزون أدمع ماطرة:[23]

وغرسناها فلما أثمرت خانها بعد الشباب المطرْ

وهْي مِن أدمعنا قدْ حبكت ومِن الأدمع ينمو الشجرْ

نبتت في الرمل لاشيء سوى نغمٍ عبر المدى ينحدرْ

مدت الظل على كل الدنا واحتمى الطيُر بها والبشرْ

إنها الصحراء لا كما هي، بل كما يحلم الشاعر أن تكون إنها الموات الذي يبعث فيه الشاعرُ الحياة ، واليبابُ الذي يزرعه خصبا ونماء ، والطلل الذي يحييه وهو رميم ، إنها اللحظة الفارقة بين ذاتين؛ ذات الشاعر الخصبة وذات المكان المحتضرة، وفلسفة إحياء المكان شعريا واستدعاء كل أسباب الحياة والبقاء حبرا ودما ودمعا ، لتكون القوةُ الصحراوية الطاردة قوةَ جذب إليها وكانت قبلها قوة جدب منفرة، إنها فلسفة الشعراء الأوائل مع الطلل وقد انتبه إليهم بحس تأويلي قرائي رهيب الناقد حبيب مونسي فقال عنهم وأسقط عنا اللبسَ، وعلى

شعرائنا المعاصرين القولَ في النّص الطللي القديم المتجدد ، الذي يتلبس المعاصرين من حيث يدرون ولايدرون ماضمر منه وماظهر، لأن الطلل خالد في ذاكرة الشعراء،" إنه نص عجيب غريب، دائم التحول ! كيف ؟ إن اللحظة المكانية التي ارتسمت في قرارة الشاعر، كانت تعتمد على جملة من العناصر المادية المشاهدة، والتي ما تزال في رحمة التحول المستمر الذي تجريه الطبيعة على هيئتها من محو وتثبيت، كلما عادت إليها الأنواء، وعدت عليها الرياح، وتعاقب عليها الشتو والمصيف.. وكل حركة في هذه الظروف تغير ما تشاء من سطر، محوا وإضافة. إن الشاعر يدرك ذلك جيدا، ولا يأمن أن تظل الصحيفة التي شاهد على حالها، بل يجزم أنها ستتغير غدا أو بعد غد .. لذلك كانت صياغته للنص تحمل هذا التحول، وتشير إليه، حتى لا ينخدع المتلقي بما وصف، ولا يأمن بدوره السكون الذي يوحي به المكان ظاهريا"[24] ، ومتى سكنت الصحراءُ واؤتمنت على عابريها وساكنيها والموجوعين بها وبمن سكنوها فهجروها؟ وهي التي لا سرّ لها ولاثبات، ذات المزاج الغريب الرهيب ، مقبرة كثير من الأهواء والأحلام القاسية بشبق انتقامي عتيق كما ورد في المدونة الشعرية العربية كثيرا ،أليست المقبرةَ التي حدّثنا عنها عثمان لوصيف بكل جوامع الألم والكلم، إنها الحياة والموت ، الألم بصيغة الأمل، كما جسّدته قصيدة' المقبرة' إذْ يتنهّد عثمان شعريا فيقول عن صحرائها المقفرة قاصدا المقابر المتحركة النهمة:[25]

مقبرة:

وزواحفُ تسحب أكفانَه

وتدبّ إلى المقبره

وأنا المتوحد بالنار

والجلنارِ

تجرّعت من سمّها الوثنيّ ولكنني الآنَ ألعن

صحراءَها المقفره"

وسعت الصحراءُ مواجعَ الشعراء الأولين والآخرين سواء ، ولم تكن ملاذهم إلا ماندر وشذّ عن قاعدة هذه الصفراء الفاقع لونها القاسية على الشعراء والغاوين معا ، كما البحر تماما والذي اتسع فوسّع آلامهم كثيرا لولا ان البحر يتسع من طرفي نقيض ، فبقدر ما تعمق المواجع ويبعث الذكريات بقسوتها ويحرك المواجع بجبروتها ، بالقدر الذي يكون ملاذا وذاتا تحسن الإصغاء لبوح الشعراء والموجوعين ، فيتأنسن شاعرا مصغيا محتضنا حين يتشيأ البشرُ من حولنا

ونمتلئ اغترابا، لذلك وددت التوقف عند'البحر' بوصفه مكانا اصطافت عنده كثير من النصوص الشعرية"العثمانية" وسبح عثمان لوصيف في لججه الفلسفية كثيرا وأصغى لمحاوراته الوجودية مطولا ، فبث فيه من روحه وبث الآخر فيه من حزنه ،ولاذ كلاهما بالآخر ، وقد جاورا اليابسة/ الأرض ولكنها ضاقت بهما:[26] **واقف عند الشواطئ**

في هدوء وسكينه

أبتني فيها مرافئ

وشراعا وسفينه

واقف الهو بدمعي

إذ جرى من مقلتيا

ها انا قد ساقني الوجد إليك

جئت لما ضاقت الارض عليا

آوني أيها البحر لديك

يتخذ عثمان لوصيف من حوادث الدهر والبحر صورا شعرية معتّقة، تحيل على الوقفة الطللية التي ظلت وشما على زند القصيدة المعاصرة ، فيمنح البحرَ/المكانَ شرعيةَ النصوص الأولى وحق الوقفات الجاهلية ويبث فيه حرائق الشاعر القديم بأثر رجعي ، متأملا متألما وتلك فلسفته مع المكان غالبا، وتشكلت وقفته الطللية المعاصرة شعريا بانفاس سردية موغلة في التكثيف والصور المتتابعة سردا وامضا وكأنّ "الأليق بالطلل أن يحتويه الشعر، لا أن تحتويه الحكاية ! إن الطلل موضوعة فلسفية في أساسها الأول. وإن كانت مكانا محددا. ومن ثم كان في فسحة الشعر مجال للطلل، لا تقو الحكاية على حمله، لأنها سرد محض."[27] ،فلاغرابة أن يسرّد عثمان لوصيف الوقفة البحرية الطللية شعريا ، فلطالما تقاسم السردُ والشعر الذوات الإنسانية الواقفة طلليا بحزن الباكية أحبتها وظعائنها بحرقة :[28]

في قاع هذا البحرِ قد سقطتْ مكسورةَ الألوانِ ترتجفُ

تهفو لها الأسماكُ في ولهٍ والسرخسُ الذهبيُّ والصدفُ

ووقفتُ عند الشطّ منذهلا والموجُ في الظلماء ينقذفُ

الشعراء ذوو مقدرة رهيبة على إعادة صياغة الكون شعريا ، فحين توحش بهم أمكنة يحاولون ترويضها ، فإن أبت واستكبرت فإنهم يشيدون بروجا غيرها ، تبلغ عنانَ الخيال الذي

أواهم من ألم وأطعمهم من مسغبة الحوادث ، فحين يضيق البَرُّ/الصحراءُ والبحرُ بالذات الشاعرة فإنها تحلّق في ملكوتها التخييلي الأول البعيد، مقتفيةً دروب التبانة الشعرية الحالمة ، فذات الشاعر تضيق بالمساحات تختنق بالمحدود، كما فلسفها الشاعر عثمان لوصيف في بعثه الجدلَ القديمَ الأول، جدلَ الخلق، مستأنسا بفرضياته مستكينا لأوهامه متكئا على حقائقه السديمية السرمدية قائلا حالما فانيا في وجود بعيد بحسّ صوفي مهيب وبرؤى علوية تأملية خالصة تنشد الخلاص:[29]

وأناالميتُ الحيُّ

كنت أصوغ السديمَ نجوما

فأرسل في العتمات البدورْ

يادمَ الكونِ

يا..يادمي

أجّجِ العشقَ نارا ونورْ

واتلُ للعالمين كتابَك

كي تستفيقَ العقولَ

وتزهرَ بالمجد هذي الزهورْ

يتنقل عثمان لوصيف بين الأمكنة والفضاءات الشعرية تنقلا هادئا قلقا، وجوديا ضاربا في فلسفة الخلق والمصير والخلاص، متشظّيَ الذات بين ألفة المكان ووحشته، فحين ضاق به البر والبحر ، اتخذ لذاته الشاعرة أمكنةً ومساحاتٍ روحيةً جديدة ؛ مثنى وثلاثَ ورباعَ ، فضرب في البر والبحر واصّعد إلى السماوات البعيدة فأوّلِ الخلق، ليدرك أنه لامكان ألطف وأشدّ حميمية وألفة من رحم الأم الأول، المبتدأ والمنتهى، فهو الرحم/المولد/ البدايات السحيقة وهو الحلم ، فالإنسان يظل معلقا بمهده الأول الذي هو جزء منه وهو كله،و " لقد أدرك الشاعر العربي منذ العهود البائدة أنه لا يستطيع أن يبرح المكان، وأن المكان يحتويه في حياته ومماته. فهو جزء منه لا يختلف عنه في شيء"[30] ، والرحم بوصفه مكانا هو اخلد الخالدين كما يقول:[31]

مثل الجنين

غفا في سدرة الرحم

يعانق

الغبشَ

المسحور في الحلم

إنه الرحم، بيتُ الوجود الأول ، الحميم الرحيم، الذي يبرحه الإنسان فيظل به حنين إليه ،وهو " جسد وروح وعالم الإنسان الأول"[32] لكن الرحم أسبق من كل البيوت اللاحقة.

2-الطبيعة: الثورة والملاذ: منذ الخليقة الشعرية الأولى؛ والذات الشاعرة تهيم بالطبيعة وتلوذ بتفاصيلها وتستنطق جماداتها وتتلبس حالاتها وتتمثل مزاجها الغريب ، في تماهٍ كبير مبرَّر بين الذات وطينتها الأولى، ولم يخلُ الشعرُ العربي لحظةً من حضور الطبيعة في تجلياتها المختلفة ، بمستويات استحضارٍ متعددة ومتباينة في العمق والمقاربة، وإذ تلوذ الذاتُ بالطبيعة فلحاجة في تفاصيلها التي شكاها الإنسانُ بثّه فوسعت اغترابَه وآنست وحشته ،" والإنسان منذ بدأ يضرب في الأرض حمل بين جوانحه ضروبا من الإحساس بالاغتراب حتى لقد تلونت قطاعات عريضة من أدبه بعد ذلك بهذا الإحساس"[33] لذلك جاءت الأشعار معلقة على ستائر الحنين واللوعة ، وهو ماعرف بشعر الطبيعة في مواثيق تاريخ الأدب العربي وأعرافه التصنيفية، ولقد وعى عثمان لوصيف الطبيعةَ واستكنهها ومنحها -إذْ لاذ بها- مكنوناتِه ورؤاه الفلسفية ، فمنحته الصورةَ الفنية اللائقة و عكست رؤاه العميقة ، وطال بهما المدّ الفلسفي والجزْر الفني، فصارا مبعثين لهواجس الذات الشاعرة ، وخلّق كلاهما تفاصيلَ الآخر ، في تماهٍ كبير تجسيدا لمقولات الانبعاث والخلق المتجدد ، ففي عز التوحد والحلول بين الطبيعة والذات الشاعرة ، يصبح كلاهما مانحا أخّاذا، لتتجسد 'أسطورةُ العنقاء' وتتجدد ، فينبعث الخلقُ والشعر والنص، وتلكم فلسفة عثمان لوصيف البعيدة التي حاولنا اقتفاءها بحسّ وحذر مبين، وقد تغنى بها في أعراسه الملحية:[34]

من رماد الموت ناتي شجرا يمتد في التاريخ نأتي
والنوافير على اهدابنا،نأتي وننثال حنينا في رمال الزمن
الموت ناتي نملا الدنيا فتونا ونريق الحب أنهارا ونعطي
للسحاب البرق وللريح المدى والصوت نأتي سفنا من
آخر الدنيا ونمتد على مملكة الأيام أشكالا ووشما وانطباع

يلوذ عثمان لوصيف بالطبيعة : أشياءَ و أمكنةً وفضاءاتٍ ومقولاتٍ فيتلبسها شعريا ، لتمتد فيه دلالاتٍ وإشاراتٍ عميقة ، فتتحسّس ذاتُه الشاعرةُ أصواتَها فألوانَها ولغاتِها وقد أوتي

منطقَ المكان والشعر على حسّ سواء، و يفقه الشاعرُ المكانَ ويحاوره "عبر لغات مختلفة : علامات لغوية وألوان وأصوات وصور..حيث الخبرة المباشرة (الحدسية) بالأشياء إلى الوعي الجمالي بهذه الاشياء ودورها ودلالتها ووظائفها"[35] ونتلمس هذاالعناق الوجودي العميق بينهما في مقطوعات عديدة منها:[36]

أعانقها

فتشتبك الغصون

وألثمها

فينمو الياسمينْ

وترقبها النجوم

إذا مشينا

فتأخذها الغواية

والجنونْ

يعانق الشاعرُ تفاصيلَ الطبيعة فيبث فيها الوجود والجمال ، ويؤنسنها حين " يتشيأ " البشرُ من حوله ، فيكتسب الليلُ صفاتِ البشر إذ يشعر بالغثيان، والحمى، ويصير للفجر جسدٌ يتمزق ،ويكون للألوان روح ورغبات خامدة ، فتهيأ لتتحرك وتتشكل ممتلئةً عواطفَ وأهواء بفائض حياة وإنسانية فتحنّ ويصيبها كما البشر الوله، إنها تمنح للذات الشاعرة مامنحتها من أهواء ومما بادلتها من عواطف حين لاذت بها وسكنتها،وهي فلسفة عثمان لوصيف في زواجه الطبيعي المعقد الوثيق : إنه عناق الذاتين ووحدة الوجود بوصف الطبيعة نصا سرمديا وبوصف النص طبيعة بكل تفاصيل التشابه: [37]

الليل يعاني من حمى الغثيانْ

وضلوع الفجر تمزقها النيرانْ

والنطفة في بئر النسيانْ

والألوان تتهيأ

تتشكل في وله وحنانْ

منح الشاعرُ الطبيعةَ لغتَه لتتجلى شعريا ، ومنحته مقولاتِها ليتأثث نصّه طبيعيا ، ولا ينبغي ذلك إلا للشعراء حين يندمجون في تفاصيل محيطهم الطبيعي فينكتب في أشعارهم

بلغتهم التي تتوغل في العادي ، فتشكله كما لانراه ولكننا نشعر به، لأن" الشعر لا يقول أشياءه في اللغة المعتادة. إن له من اللغة ألفاظا وتراكيب تمعن في خلق جو من المعاني التي تعمل عملها الدسيس في النفس"[38]. تلكم اللغة التي تتنزل من سماوات الدلالات العميقة المتجددة التي تمنح الشعريةَ الإنسانية خلودَها وتجدّدها الدائمَين، ومن النصوص التي عانقت السماءَ بوصفها آفاقا بعيدة منشودة بكل تشكيلتها الرمزية والدلالية هذه المناجاةُ/المناغاةُ للطفل الشاعر الحالم بحسّ رومانسي يذكّرنا بروائع "جبران" العميقة ومواكبِه الأنيقة، وبفلسفات"طاغور" الخالدة وأشعاره الساردة:[39]

السّماء:

أين منّي نجومك الخضراء

والنواقيس

والمدى

ياسماءْ

أين مني رذاذك البكر يهمي

بين عيني

حين يأتي المساءْ

وإذا السماء رُفعت شعريا لدى عثمان لوصيف واستمطرها وصرّف دلالاتِها بعمق ، فبكت بعينه وتبللت عيناه برذاذها ، فإنّ الجبال قد نُصبت شعريا لدى في حمى الشاعر، ولم تكن مقارباته للجبال بأقل جمالا من الاقترابات الرومانسية الأندلسية خصوصا ، ولا أقل قيمة رمزية من كثير من فلسفات الأوائل وأساطيرهم وخرافاتهم عن الجبال، حيث"الجبل.. مكان للضياع والفقد.. الجبل.. ارتفاع وحاجز ونهاية.. لقد عمدت القصة الخرافية، والقصة الشعبية إلى استعمال "الجبل" لواحد من هذه المعاني، بعد إحاطته بهالة من الضبابية و عدم التحديد. تبث فيه الروائح والأصوات، من همهمة وهمس وهدير.. وكل لغط غامض و غريب. وهي في سعيها ذاك تراعي – ابتداء- عاملا نفسيا مركوزا في المتلقي الذي تمتلئ نفسه فرقا مما يسمع، ومما يرتسم على وجه "الحاكي " من تعابير تهوّل الوصف، وتنفخ فيه الأصوات، وتبث فيه الحركات."[40] ، ومن الطرافة الفلسفية أن يتمنى الشاعر كونَه جبلا حجريا أصمّ قاسيا صابرا يهزم كل مايمكن آن ينتابه من أهوال الطبيعة ، وهو لا يريد أن يكون حجرا صغيرا "ماضويا"

ليثبت جدارته بالحياة ، بل يفضل أن يكون جبلا شامخا لا يتشقق من خشية الآخرين ، إذْ تنكسر الريح عند قدميه ، وتتدفق النار صاغرة بين أصابعه لتنال من رفات البشر، فهو كاتب بالنار معانق لها معذب لها يمتطيها ليبعث وينبعث في رفات الكون جميعا:[41]

جبل ليتني جبل من حجر

تعصف الريح لكنها تحت أقدامه تنكسر

ليتني عاصف أو مطر

ليتني ليتني كيمياء

تتسلق نارَ السماء

ثم تهبط كالصاعقة

في رفات البشر

جبل ليتني جبل من حجر

3- مديـــــحُ المدن ؛ أنساقا وسياقات: نالت المدينةُ حظا وافرا من الحضور في الأدب العربي منذ القديم ، بوصفها مكانا غنيا بالأحداث وبما يمنحه للنص من مناورات أدبية، ولم يخلُ النص الشعري القديم ولا المعاصر من استحضار المدينة أيضا ، فمنذ الشعر الجاهلي إلى شعرنا المعاصر والمدن محظوظة بهذا الاستحضار ، حتى إنه وُسم قسمٌ من الشعر العربي بشعر المدينة أو رثاء المدن والمماليك في طبعته الأندلسية ،فكثيرا ما تغنى الشعراء بالمدن المشيدة و التليدة والساقطة تباعا كذلك ، ففي المدن حيواتٌ وذكريات وأحلام، وما المدن سوى مخزون لتفاصيل ساكنيها وعابريها وهي مدّخراتُ أهوائهم وعواطفهم ومصبُّ حنينهم أيضا ، ولقد عُرف عثمان لوصيف بنصوصه' المدنية' كثيرا وهو يكتب عن عديدها ، تلك التي زارها أو وقف أو استوقف بها غيره ، منها الجزائرية كبسكرة وسطيف وباتنة ومنها العربية كفلسطين بمدنها أو مصر بنِيلها، لذا وددنا أن نتوقف عند هذا العشق'المدني' عند عثمان لوصيف لاستجلاء مقارباته المدنية وفقهه في ذلك، ومن هذه النصوص التي ذكرت المدنَ بأسمائها قوله عن سطيف:[42]

بكيت وأدركني الأسى

قلت أعود إلى النخل

لكنني حين ناديت عبر الدروب

سطيف..سطيف

وجدتك بين يديّ بثوب الزفاف

فأيقنت أن الغرام سطيف

ضممتك فانهمر الثلج

غنت عيونك

وابتدأ العرس

ثم ارتمينا على الريش ملتهبين

ونمنا هنالك تحت الندى شفة في شفه

إن توظيف المدينة(سطيف) في هذه المقطوعة جاء استقصاء لبواطن الذات وتسريدا لمحكي النفس ، لتكون سطيف الملاذ للشاعر من الأسى وقد خانه النخل وما استجاب ، والميزة الثانية أن المدينة في المقطوعة تأنسنت وصارت معادلا موضوعيا للمرأة/الأنثى المشتهاة ، وكان حوار الأهواء والأجساد بديلا عن الفقد والاغتراب الذي عاشه الشاعر، إذْ تحاورت الشفاه دفئا وقد 'انهمر الثلج' كما قال الشاعر، وهو تجسيد طريف للمدينة بوصفها بشرا سويا ، ولطالما تحاورت الأجساد بوصف الإنسان جسدا يعيش بين أجساد بشرية وشيئية أخرى ، ليستحيل الجسد مكانا حيث" المكان يدرك إدراكا حسيا مباشرا ، يبدأ بخبرة الإنسان لجسده ،هذا الجسد هو (مكان) ، أو مكمك القوى النفسية والعقلية والعاطفية للكائن الحي"[43]، فحين يجعل الإنسان المدينة جسدا ويؤنسنها فلحاجة في تعويض فقد حسي داخلي وخارجي أصابه ، أما 'باتنة' فمدينة طالب فيها الشاعر بلجوء عاطفي وقد شكاها تعبَه وغربته وظمأه وصبابته وأسفاره الشاقة،ملتمسا منها مددا روحيا وإقامة عاشق" سندبادي" قَدره السفر الدائم:[44]

ها أنا جئتك صبّا ظامئا

أحمل الشمس وحبي والزهر

فاحضنيني إنني محترق

وامسحي عن جبتي ملح السفرْ

تغنى عثمان لوصيف بالقدس كما تغنى بها جلُّ الشعراء الجزائريين وأفردوها نصوصا كثيرة ، وربما كان للقدس حضور لايفوقه إلا حضور الوطن في الشعرية الجزائرية المعاصرة ،لأن فلسطين موضوعة عابرة للنصوص، وفلسطين أعز البلدان وأخلد الجراح لدى الجزائريين

جميعا ،وعادة مايذكرها هؤلاء بحرقة وفخر وحسرة على المآل ووعد بالحرية والشروق ولو بعد حين:[45]

يابروجَ التنزيل ياصهوةَ المعراج

يامنبع الهدى والقداسهْ

ياصلاة العشاق في كل دربٍ

ياغراما فيه انغمسنا انغماسه

هو ذاالجرح صارخ يشتهي

عانقيه ودغدغي إحساسَه

وللنيل حضور فيشعر عثمان لوصيف ، فبين مديح وفخر يتغنى بأمجاد النهر الجارية نحو الخلود ،وكدأبه يتناول الشاعر الأمكنة والمدن والطبيعة بحسّ رومانسي أخاذ لأنّ" الشعر لا يقول أشياءه في اللغة المعتادة. إن له من اللغة ألفاظا وتراكيب تمعن في خلق جو من المعاني التي تعمل عملها الدسيس في النفس"[46]، وقد جاء في ذكره النيل:[47]

النيل في النهار

أو تحت ندى السحرْ

والنيل في الغروب

أو تحت سنّي القمرْ

أيقونة من فضة

أو أرجوان يستعرْ

أما مدينة ورقلة فيجعلها مبعثا للغناء وزهرة تستحق أن يغني لها الشعراء ، لماضيها وحاضرها ولأعراسها المقبلة وكأن أعراسها الحاضرة خرساء ، ويصفها بالزهرة وكأنه يشعر بأن "وردة الرمل لاترتوي بالندى" كما يقول الشاعر عمار مرياش، وجاز له أن يتغنى بزهرة المدائن:[48]

دعيني أغنّ

لأعراسنا المقبلهْ

آهِ يا زهرتي

آه يا ورقله

أما مدينة تيزي وزو فيستحضرها وتاريخَها وأصالتها بصوامعها وزواياها وقرآنها وعراقتها ومآذنها، وعزتها الأبدية ولو كره الكارهون ،وبكل أنساقها الظاهرة والمضمرة، وبمدّخراتها الصوفية وممنوحاتها الفكرية التي تحسسنا بأنه شاعر عارف يرد على كل من سوّل له قبحه أن يرمي مدينته بسوء وتفسخ، فكل مافيها عال وشامخ ومدعاة لكل تواق إلى الزهاد المتصوفين عشاق الجمال الروحي الخالد:[49]

تيزي وزو

قمم تتشامخ عاليه

متعاليه

قرآن يتلى

ومآذن تتصادى

في الآفاق وتعتز

وأنا المتصوف فيك

الغارق فيك

أناالموقظ ريحك

المستنفر روحك

وأنا اللغز اللغز

4- تأنسنُ المكان و تشيُّؤ الإنسان: لا يخلو الشعرُ العربي - كما الجزائري - من حسّ اغترابي كبير ، عكسته المدوناتُ الشعرية لمختلف الأجيال والاتجاهات ؛ وليس أقرب لدى الشعراء من أن يلوذوا بما ومَن يمنحهم الأمان و الحميمية ويملأ أرواحَهم الشاغرةَ الشاعرةَ الوطنَ المفقود ، ولقد وسعت الأمكنةُ أرواحَ هؤلاء فدنوا منها كما الطبيعة واستأنسوا وسلموها أنفسهم وديعين ودخلوا تفاصيلها آمنين، ومن ثمّ يمكننا أن نتحدث عن تأنسن الأمكنة وما بث فيها الشعراءُ من أرواحهم ومن قيم الإنسانية السمحاء، في زمن خلت أصناف بشرية كثيرة من هذه العواطف النبيلة والأهواء الراقية فتشيأ الإنسان، وبين تَأنسن الطبيعة والأمكنة والأشياء وبين تشيُؤ الإنسان ، تنسج كثير من مقولات الذات ، ويتغير كثير من مفاهيم الأنا والآخر ، ولعل الشعراء الأكثر حسا واغترابا وانكسارا نتيجة هذا الانقلاب القيمي الأهوائي الإنساني، وحين نتتبع المدونة الشعرية"العثمانية" نستشعر تلك الفلسفةَ المكانية المختلفة بين الذات الشاعرة وذاتِ المكان في

شعر عثمان لوصيف، حيث تتلبس كثير الفضاءات الإنسانيةَ قيما وعواطفَ في عز تعري الإنسان منها، وتتجلى تلك المبادلاتُ في الأدوار من خلال صفات عديدة إنسانية تتقمصها الأمكنة بكل مؤثثاتها، فيميل الشاعر إلى الأشياء والأمكنة الحميمة كلَّ ميل ، ويجسد هذا المقطعُ ثنائيةَ" التأنسن والتشيؤ" ، حيث تستحيل المدينة بشرا سويّا، معبودة الشاعر:[50]

آهِ معبودتي"

أوقدي النار إن الظلام يحاصرنا

والمدينةُ ترتج مذعورةً

من دويّ الصواعقِ

والموتُ يركض عبر الشوارعِ

والزمهريرُ يزمجر في دمنا

أوقدي النارَ واقتربي

ثم قولي أحبكَ

ولننصهر

هذه الطينة البشرية

في شعلة خالده"

إنه تشخيص المكان وأنسنته ؛ حيث يركض الموت كالحيوان أو البشر، ويزمجر الريح كالأسد، فقد منح الشاعرُ الجمادات والاشياءَ روحا بشرية ، وهي فلسفةُ أنسنةِ الأشياء وبثها" الانفعالات الوجدانية. هذه الحياة التي قد ترتقي فتصبح حياة إنسانية.. تهب لهذه الأشياء عواطف آدمية، وخلجات إنسانية "[51]، ويتأنسن المكانُ شعريا في "أعراس الملح " الحزينة، فيُشنق البحر كالمسجون، ويبكي زهرُ اللوتس كاليتيم، و ماتلاهما بحزن مقبورٍ في ذات الشاعر والمكان معا كما جاء في هذاالمقطع:[52]

وانكسرنا..أه يامقبرة الورد سلاما..حبنا ينزف..كان

البحر مشنوقا ، وكانت زهرة الشمس على أنقاضنا تبكي.

.وأسراب السنونو والمناديل وأكواخ اليتامى..

كلها همت ولجت في تراتيل الوداع

ولعلّ اشدّ المقاطع الشعرية "العثمانية" إيلاما للذات القارئة تلك الصور التي التقطتها الذات الشاعرة حين تماهت فراودت الذاتَ المكانية فهمّا معا، في فلسفة تحكي الميل "الأنسني" الرهيب للأشياء، لدرجة التماهي والذوبان وإقامةِ علاقات إنسانية شيئية غير منطقية بمنطق العادي، غيرَ أن الشعر والبلاغة يمنحان الذوات قوانينَ جديدة وحرياتٍ كبيرة وشرعيةً فنية نادرة، فحين يتزوج الشاعر النارَ ، ويهوى نيزكا ويلوذ بكهف مخافةَ الذئاب البشرية صادحا بالحب الإلهي الجارف ، ينشد حريته الكبرى، من خلال كل هذا الانحلال الشعري اللافت والانفتاح الدلالي الرهيب، والتحرر القرائي الشديد للمكان بوصفة وثيقةَ تحررّ لا قيدَ عيودية وحيزَ تكميم وتعتيم، فالحرية "في أكثر صورها بدائية، هي حرية الحركة. ويمكن القول إن العلاقة بين الإنسان والمكان تظهر بوصفها علاقة جدلية بين المكان والحرية. وتصبح الحرية في هذا المضمار، هي مجموع الأفعال التي يستطيع الإنسان أن يقوم بها دون أن يصطدم بحواجز أو عقبات، أي بقوى ناتجة عن الوسط الخارجي، لا يقدر على قهرها أو تجاوزها"[53]، وهذا ما ورد في شعر عثمان لوصيف:[54]

أتزوج النار الزكية ساقطا في بشر هذا الليل أهوى نيزكا
في القاع ينقني مناخ الموت ، تنهشني الذئاب العمي
تغمرني ركامات الرماد ن أرتب الحب الإله ،فتصرخ العنقاء ملء دمي
وانهض في المقابر ثم امضي في كهوف الموت أمضي
أضرم النيران في كل اتجاه، في هشيم الريح،في الأنهار،في
جثث الطيور وأرتمي في لجة النيران أعتنق الحريق.

خاتمـــــــــــــة: نختتم ورقتَنا هذه بأهم ماخلصنا إليه جرّاء هذا الاقتراب النسقي من فلسفة المكان في شعر عثمان لوصيف :

- إنّ المتتبع للظاهرة الشعرية عند عثمان لوصيف سيتحسّس الحضورَ المكانيَّ اللافت والمتميز ؛ ويمكن عدّه شعرا مكانيا بامتياز.

- الأهم من استحضار المكان شعريا هو الوعيُ به واستنطاقُ مقولاته وتحسّسُ جمالياته واكتساحُ مستوياته شعريا ، ومخاطبةُ أنساقه الظاهرة منها والباطنة المضمرة، وهو ما لمسناه في النصوص المستهدفة.

- لاذ الشاعر بالطبيعة أمكنةً وتفاصيلَ ومؤثثاتٍ ، فاستحضر عناصرَها بحسّ رومانسي أخاذ ،ولكن بنزوع حزين زاوج بين التألم والتأمّل.

- لم يلجأ الشاعر إلى الطبيعة شاكيا ضعيفا لتمنحه الأنسَ بقدر ما اقترب منها قويا بفلسفةِ منجِها رؤاه وبثّ مكنوناته.

- لم يكتفِ الشاعرُ باستحضار الأمكنة الواقعية الأليفة منها والمعادية الموحشة ، إنما عمد إلى خلق أماكن وعوالم جديدة عجائبية أسطورية تخييلية علّها تسع رؤاه حين ضاق به المكان الحقيقي الممكن الواقعي.

- بدا الشاعرُ مدّاحا للمدن مؤرخا لها باثّا إياها حنينَه وتعبَ أسفاره السندبادية الشاقة .

- كانت المدينةُ معادلا موضوعيا للمرأة الحبيبة العشيقة والحب والحياة المنشودة.

- يستحضر الشاعرُ المدنَ بأنساقها الظاهرة والمضمرة تاريخا وفكرا وحضارة وأهواء، عاكسا بذلك قراءاته العميقة للمدينة.

- أنسن الشاعرُ المدنَ والأمكنة باثا فيها من روح الإنسان وقيمة وعواطفه، مقارنا بذلك بين الذات البشرية "المتشيئة" والذات المكانية "المتأنسنة"، لكي يحدثنا عن الاغتراب بوصفه ظاهرة إنسانية جارفة تجلت في الشعرية المعاصرة بقوة.

- قارب الشاعرُ المكانَ بحسّ إنساني كبير ، وأقام علاقاته الفنية مع كل عناصر المكان، واستدعى لذلك الحواس جميعا فتداعت ، فاستشعرنا حوار الألوان والأصوات والصور جليا في النصوص الشعرية.

قائمة المصادر والمراجع:

-ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين(2005) ،لسان العرب (مج11) ط4، ، لبنان، دار صادر للطباعة والنشر .

- إبراهيم ، صالح(2003) ،الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف،ط1، ، المغرب، المركز الثقافي العربي،

- أحمد قاسم ، سيزا، بناء الرواية. ط2، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- باشلار ، غاستون(1987)، جماليات المكان، تر:غالب هلسا، ط3، لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

- بوذيبة، إدريس(2011) ،الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار،الجزائر، منشورات بونة للبحوث والدراسات.

- الجبوري، يحيى(2008)،الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، ط1، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.

-حسين خالد حسين(2014) ،شعرية المكان في الرواية الجديدة، السعودية، مؤسسة اليمامة الصحفي

- حصيد ، فيصل(2014) ،الصحراء في الكتابة السردية عند بوطاجين، الملتقى الوطني الثالث للكتابة السردية، جامعة أدرار، الجزائر.

-الدغمومي ، محمد(2012)، المكان القصصي، مجلة آفاق، 81-82،

- ربابعة ، موسى(2008) ،جماليات الأسلوب و التلقي، ط1، الأردن، دار جريرللنشر والتوزيع.

- شريبط، أحمد، (1991)، الزلزال، تأويل الشخصيات والمكان، مجلة المساءلة، ع1،ص 112-120

- قطب ، سيد. النقد الأدبي. لبنان، دار الشروق.

- لحميداني، حميد (2000) ،بنية النص السردي، ط3، المغرب، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع.

- كحلوش ، فتيحة(2008) ، بلاغة المكان، لبنان، ط1، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت.

- لوصيف، عثمان (1997)، أبجديات، الجزائر.

- لوصيف، عثمان(1988) أعراس الملح ،الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.

- لوصيف، عثمان(1997) ،الإرهاصات ، الجزائر، ط1، دار هومة.

- لوصيف، عثمان(1997)، براءة، الجزائر، ط1، دار هومة.

- لوصيف، عثمان(1999)،زنجبيل، الجزائر، ط1 ، دار هومة .

- لوصيف عثمان(1986)، شبق الياسمين،الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب .

- لوصيف، عثمان(1997)، طولقة، الجزائر، ط1، دار هومة. .

- لوصيف، عثمان(2000) ،قالت الوردة، الجزائر، دار هومة.

- لوصيف، عثمان(1982) ،الكتابة بالنار، الجزائر، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب.

- لوصيف، عثمان(1997)، لؤلؤة، الجزائر، ط1، دار هومة.

- لوصيف، عثمان (1997) ،نمش وهديل ،الجزائر، دار هومة.

- محادين ، عبد الحميد ،(2001)،جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية الحديثة، البحرين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

- مرتاض ، عبد الملك(2007)،القصة الجزائرية المعاصرة، الجزائر، ط4، دار الغرب للنشر والتوزيع.

- مونسي، حبيب(2001)، فلسفة المكان في الشعر العربي، قراءة موضوعاتية جمالية، سوريا، منشورات اتحاد الكتاب العرب.

- نجمي ، حسن(2000) ، شعرية الفضاء، المغرب، ط1،المركز الثقافي العربي.

- النصير ياسين(2010) ،الرواية والمكان، سورية، ط2، دار نينوى للطباعة والنشر والتوزيع.

- يوري، لوتمان (1989)، مشكلة المكان الفني،ترجمة سيزا قاسم، مجلة ألف، العدد السادس.ص97-107.

الهوامش:

[1] لحميداني حميد : بنية النص السردي،ط3، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ، 2000، ص53.

[2] ابن منظور: لسان العرب (مج11) ، ط4، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، 2005.

[3] مرتاض عبد الملك: القصة الجزائرية المعاصرة، ط4، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، ، 2007، ص134

[4] لحميداني حميد: المرجع السابق، ص54.

[5] نجمي حسن: شعرية الفضاء، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2000، ص32.

[6] باشلار غاستون: جماليات المكان، تر:غالب هلسا، ط3، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت1987، ص36.

[7] لحميداني حميد: المرجع السابق، ص53.

[8] شريبط أحمد: الزلزال، تأويل الشخصيات والمكان، مجلة المساءلة، ع1، 1991، ص75.

[9] إبراهيم صالح: الفضاء ولغة السرد، الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف،ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ، 2003، ص13.

[10] ربابعة موسى: جماليات الأسلوب و التلقي، ط1، دار جرير للنشر والتوزيع،عمان الأردن، 2008.، ص74.

[11] ربابعة موسى: المرجع نفسه، ص74-75.

[12] بوذيبة إدريس ، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة الجزائر، 2011، ص188.

[13] كحلوش فتيحة: بلاغة المكان، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان،ط1، 2008 ، ص09.

[14] محمد الدغمومي: المكان القصصي، مجلة آفاق، منشورات اتحاد كتاب المغرب، 81-82، فيفري 2012، ص25.

[15] النصير ياسين: الرواية والمكان،ط2، دار نينوى للطباعة والنشر والتوزيع، سورية ، 2010 ، ص15.

[16] مونسي حبيب: فلسفة المكان في الشعرالعربي، قراءة موضوعاتية جمالية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2001،ص07

[17] مونسي حبيب : المرجع نفسه،ص08

[18] مونسي حبيب: المرجع نفسه ، ص129

[19] باشلار غاستون: المرجع السابق ص49

[20] نجمي حسن: المرجع السابق، ص32

[21] حصيد فيصل: الصحراء في الكتابة السردية عند بوطاجين، أعمال الملتقى الوطني الثالث للكتابة السردية، 2014، ص32.

[22] محادين عبد الحميد ، جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية الحديثة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، البحرين، 2001، ص65.

[23] لوصيف عثمان: شبق الياسمين، المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر، 1986، ص64

[24] مونسي حبيب: المرجع السابق ، ص26

[25] لوصيف عثمان: طولقة، ط1،دار هومة، 1997 ص54

[26] لوصيف عثمان: الإرهاصات ،ط1، دار هومة،1997، ص61

[27] مونسي حبيب: المرجع السابق، ص49

[28] عثمان لوصيف : نمش وهديل ،دار هومة ، الجزائر 1997،ص58

[29] لوصيف عثمان:قالت الوردة،دار هومة،2000،ص11

[30] مونسي حبيب: المرجع السابق، ص 79

[31] لوصيف عثمان : نمش وهديل ص58

باشلار غاستون:المرجع السابق ص38[32]

[33] الجبوري يحيى: الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، ط1، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2008ص67

[34] لوصيف عثمان: أعراس الملح ، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1988 ص33-34

[35] حسين خالد حسين: شعرية المكان في الرواية الجديدة،مؤسسة اليمامة الصحفية ، الرياض، ص76

[36] لوصيف عثمان :أعراس الملح، ص37

[37] لوصيف عثمان: المصدر نفسه، ص79

[38] حبيب مونسي: المرجع السابق ، ص 115

[39] لوصيف عثمان:لؤلؤة، ط1، دار هومة،1997، ص71

[40] مونسي حبيب: المرجع السابق ص67

[41] عثمان لوصيف:براءة، دار هومة ،1997،ص40

[42] لوصيف عثمان: اللؤلؤة ، ص11

[43] يوري لوتمان : مشكلة المكان الفني،ترجمة سيزا قاسم، مجلة ألف، القاهرة، العدد السادس، ص79

[44] لوصيف عثمان: الإرهاصات،ص95-96

[45] لوصيف عثمان: الكتابة بالنار،ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر،1982،ص30.

[46] مونسي حبيب : المرجع السابق، ص115

[47] لوصيف عثمان: زنجبيل،ط1، دار هومة ، 1999،ص08

[48] لوصيف عثمان: اللؤلؤة ، ص4

[49] لوصيف عثمان: أبجديات،1997، ص72.

[50] لوصيف عثمان: براءة، ، ص46

[51] قطب سيد. النقد الأدبي..دار الشروق، بيروت. ص61